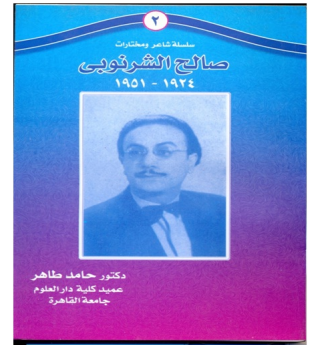




شاعرية صالح المشرنوبى

تتكون الشاعرية - كما سبق أن أشرت فى كتاب هاشم الرفاعى - من ثلاثة عناصر رئيسية هى: الموهبة، والتقنيك الفنى، والرسالة التى يريد الشاعر توصيلها للناس. وبقدر قوة أو ضعف كل عنصر من هذه العناصر، وبقدر التناسق والتنسيق بين عملها.. تتميز أو تنمى الشاعرية لدى الشعراء، ويتفاوتون فى الإبداع والتفرد.

أما الموهبة فهى نعمة من النعم الإلهية التى يمنحها الله تعالى لبعض البشر. إنها الطاقة الكامنة التى تؤهل صاحبها لكى يصبح قادراً - وبصورة عفوية - على القيام بالعمل - سواء كان يدويا أو فكريا أو فنيا - على نحو يفوق عمل غيره من الناس، الذين لم يمنحوا تلك الموهبة. فمثلا يستطيع أى مهندس تعلم أصول العمارة أن يصمم بيتا، ولكن المهندس الموهوب هو الذى يتميز تصميمه

بلمسة أعلى من زملائه الذين تعلموا الأصول والقواعد ، ولكنهم افتقدوا تلك اللمسة السماوية التى نسميها أحيانا بالإلهام

.

وأما التكنيك الفنى فهو الجهد الخاص الذى يبذله الشاعر للإرتقاء بعمله الشعرى ، وهذا يتوقف بالطبع على ثقافته ، واختياره وخيرته فى الحكم على الأشياء ، إلى جانب قدرته على توظيف العناصر الدقيقة وحسن استخدامه لها ، ثم إزالة آثار المصنعة عن عمله النهائى حتى يبدو وكأنه أثر طبيعى . وقد أجدنى مضطرا إلى استخدام تشبيه أصبح يشيع فى وقتنا الحاضر وهو "المطبخ الداخلى" . إن العمل الشعرى يمر بالفعل لدى كل شاعر بهذا المطبخ الذى يتفنن - هو وحده وبعيدا عن أعين الناس - فى تجهيز الطعام داخله بصور شتى ..

ولكنه عندما ينتهى منه ، يقدمه للضيوف شهيا فى طبق جميل . أجل ، لكل شاعر مطبخه الذى يمتلئ بكافة صنوف الطعام ، وبمختلف الأجهزة والأواني التى تساعد على طهى الطعام ثم بالفرن الذى يأخذ وقتا لإعداده .. ومن الملاحظ أن الشعراء الحقيقيين لا يحبون ولما يسمحون أبدا أن يدخل أحد مطبخهم الخاص . فهو لهم وحدهم . يفعلون فيه ما يشاءون من وجبات جيدة وأخرى رديئة ..

وأحيانا ما يحترق منهم الطعام فيلقون به دون أن يراه أحد .. ولعل هذا هو السر فى أن النقد حتى الآن يجهلون كيفية إنشاء القصيدة وخطوات تناميها عند الشاعر .. إنهم فقط يتعرضون على القصيدة فى حالتها النهائية ، ويكون لهم حينئذ الحق فى الحكم عليها بالجودة أو الرداءة .. لذلك فإن إحدى مآسى الشاعر - ومآسيه كما نعلم كثيرة - تتمثل فى إحساسه الحاد بالمرارة عندما يحكم على عمله النهائى بكلمة واحدة .. دون أن يراعى النقد ما بذله فيه من جهد ، وما أنفقه من وقت ، وما أحرقه من أعصاب .. ومع ذلك فإنه لا يقدم على الشكوى ، وذلك لسبب بسيط .. إنه أخفى - وسيظل يخفى - عمله الخاص ، وهو ما يمكن أن نسميه التكنيك الفنى داخل مطبخه الخاص !

أما ثالث عناصر الشاعرية فهو الذى يتمثل فى الرسالة التى يريد الشاعر توصيلها للناس . وهذه الرسالة تتكون دائما من مضمون وطابع داخلى .. ولما يكاد يخرج المضمون عن دعوة الشاعر إلى الإرتقاء بالواقع من أجل أن يكون على مستوى المستقبل . وهذا يتطلب ضرورة التغيير نحو الأفضل ، وعدم الركون إلى الرتابة والجمود والتخلف التى تتناقض مع حركة الحياة وتطورها ..

أما المطابع الخارجى للرسالة ، وهو ما نعبر عنه بالمشكل الخاص فقط يكتسى بطابع وجدانى ، أو وطنى ، أو اجتماعى ، أو انسانى .. الخ

هنا ينبغي التوقف قليلا لتوضيح نقطة هامة ، وهى أن بعض الناس قد يهوى الشعر ، وتكون لديه بعض عناصره ، ولكنه يفتقد تلك الرسالة الضرورية لكل شاعر حقيقى . ولعل هذا هو السبب فى أن معظم الشباب نجده يتجه إلى تسجيل خواطره فى مذكرات يومية ، قد تأخذ أحيانا طابع الشعر ، من وزن وقافية .. ولكنه يظل فى إطار التعبير عن نفسه لنفسه . وهذا نوع من دوح الوجدان ، وشكوى الروح ، وأنين الجسد . ونفس الأمر ينطبق على كثير من الشعراء ، أو من يصرون أن يكونوا كذلك ، لكنهم لا يقدمون فى قصائدهم التى "ينظمونها" أى رسالة ذات بعد ثقافى أو حضارى شامل . هؤلاء أحيانا ينتقدون وضعاً ، أو يناصرون موقفاً ، أو يمدحون شخصا ، أو يرثون راحلا .. ولكن قصائدهم تظل فى نطاق العمل الشعري الخالى من أحد أهم عناصر الشعر الرئيسية ، وهى الرسالة الشعرية .

وعلى الرغم من أن مضامين الرسالة الشعرية تكاد تكون واحدة أو متشابهة ، إلا أن الشاعر الحقيقى هو الذى يستطيع أن يعبر عنها متفردة ، ومن خلال شخصية متميزة . فمثلا الحب .. يعتبر أحد المضامين الكبرى فى تاريخ الشعر الإنسانى ، ولكنه عند كل شاعر يأخذ شكلا خاصا ، ويظهر بصورة معينة ، بل إنه فى كل قصيدة من قصائد الشاعر نفسه يتميز بطابع مختلف وأسلوب خاص .

بعد هذا التمهيد عن المشاعرية بصفة عامة ، يمكن أن نقترح ، بل ونعامل مباشرة مع شاعرية صالح المشرنوبى ، وأول ما نلاحظه هو ظهور الموهبة الشعرية وتوافرها لدى الشاعر فى وقت مبكر . ويكفى دليلا على ذلك ما نقرأه فى ديوان "أصداف الشاطئ" الذى انتهى منه سنة 1943 (الشاعر مولود سنة 1924) حيث نلتقى بقصائد على مستوى عال من الناحية الفنية والفكرية . والواقع أن ميزة الموهبة الشعرية تكمن فى إنقاذ الشاعر من محاولات التعثر الأولى التى يقع فيها كثير من الشعراء ، فاقدى الموهبة . وذلك مثل الأخطاء اللغوية ، والنشاز الموسيقى فى عروض الشعر ، أو استخدام القوافى بصورة اضطرابية .. الخ

يقول فى أولى مراحلها :

عشقتها من بذات الكوخ طاهرة

عذراء من نظرتة عاش مسحورا
وضمننا الدهر حيناً ثم فرقنا
وأبعد النور عمن يعشق النورا

ويتحدث عن مصر ، وحال اللغة العربية :
أرى الكتابة تبنى عهد عزتها
والنيل فى شجوه كالعاشق المعانى
وهذه اللغة المفصحى تئن فمن
يحنو عليها ويأسو جرحها القانى
فى روضة المخلد سقياها ومنبتها
وفى سماء المعالى فرعها الدانى
ثماتها من معانى الفكر تقطفها
يد الخيال وتهديها إلى الجانى
وزهرها عبقري النظم جن به
شعر الزمان فأمسى جد أسوان
كفالك يالغة الأحرار مفخرة
وشاهدا بينا عن رفعة المشان
حديث طه وقرآن الدله وهل
فى جنب هذين من فخر لإنسان

وفى المراحل الأولى لأى شاعر ، لابد أن تجد بصمات واضحة أو خفية ، ناتجة عن تأثر ما بالشعر العربى القديم ، وليس فى هذا أى انتقاص من قيمة الشاعر الحديث أو المعاصر ، فإنه يسير على درب طويل ، ممتد فى الماضى ، ومنتجه نحو المستقبل .. ومن الواجب عليه أن يستوعب كل ماسبقه من تجارب ، بل وأن يقوم بمحاكاتها حتى يصلب عوده ، وتنضج قدرته الذاتية على الانتاج الخاص به ..
نقرأ للمشرنوبى ، فى تلك المرحلة ، شعرا يحمل الكثير من طابع الشعر العربى القديم (أبو تمام ، المتنبى ، أبو نواس .. الخ)

ذكرتك والذكرى تضاعف من كرى
فغنى لحون الدمع فى كهفه قلبى
يخالجه طيفان : طيف يذيبه
حنينا ، وطيف محرق كلظى الجذب
هو البين لم يخلقه من قدر الهوى
لغير عذاب العاشق المذنب المصب

ومن ذاحية أخرى ، فإن تأثر المشاعر فى مرحلته الأولى لا يتوقف على الشعر العربى القديم ، وإنما يمتد إلى الشعر الحديث (على محمود طه ، إبراهيم ناجى ، أحمد زكى أبو شادى .. الخ) ومن ذلك قوله :

اترع الكاس كما شئت ورتل أغنياتك
ربما أنستك ما لاقيته فى أمسياتك
المهوى المماجن دنياك وأحلام حياتك
والمهوى العذرى دنياى فته فى سبحاتك
وارو للناس أحاديث المطلا فى خطراتك

تتوالى قصائد الشاعر ، كل منها يعبر عن موقف ، ويحكى عن تجربه ، ويصور مشهدا من مشاهد الحياة اليومية التى يعيشها.

من قصيدة بعنوان " المجنون " يقول:

نسميه مجنونا فنحصب رأسه
وفى رأسه ثارت عواصف من عقل
تنوح فتصليه لظى من نواحيها
فيشرد ملتاث الخطى كبنى النمل
يخال سرايا سائل من سمائه
وما فى سماء الأرض شئ سوى المحل
وينظر أرض الناس وهى جديبة
فيحسب أرض الناس وبلا من الويل
فيهذى بالبحان تمرزق شملها
وليس لها فى آخر العمر من وصل

ومن قصيدة بعنوان " ابن الطريق " عن طفل مشرد يبيع المانصيب:

ألقت عليك الليالى ذوبها البالى
وضعت ما بين تجوال وتسأل

أيامك السود عقد ضل ذاظمه
وجيد عمرك مذبوح كآمالى
ويحى عليك هشيما ضمه كفن
ودرة غيببت فى قبر أوحال

**

تبيع للناس حظ المال مضطربا
ودمعة اليتيم فى عينيك تضطرب
ماذا جنيت فما ترعاك والمدة
ولم يفض من حناياه عليك أب

ومن قصيدة " إلى راقصة " اغتال الزمن نضارتها يقول:

لم يعد فيك ما يسر العيوننا
فاعدى العابثات والمعبثينا
نسلت ريشك المنايا وأبقت
جسدا هالكا وروحا حزينا
وبقايا قلب ، وأشلاء نفس
وشعاها تحت الرماد سجيना
وحطاما قد عضضته الرزايا
يتنزى مدامعا وأنينا
فإذا ما أعيالك خبت المغوانى
فاغمرى كيدهن صفحا ولينا
وإذا أيقظت شجونك حوراء
وأغرت بقبحك الشامتينا
فاسخرى من جمالها وصباها
واحقرىها بكثرة العاشقيننا

أو عطيها .. فرب شيطانة منكن قالت ، فأبكت الواعطينا!

وفى قصيدة " الممثل " يقول:

كل حى له لسان ، وهذا
وحده ناطق بألف لسان
ولمقد يعجز البيان إذا
عبر عما يشاء دون بيان
بانفعالات وجهه الإنسانى
واختلافات جسمه الأفعوانى
بيديه ، بحاجبيه ، بعينه
بما لا تقوله العينان
فهو بالك أو ضاحك ، وبليد
عبرى ، أو معجز ذو افتتان

وفى قصيدته " الصديق " يقول:

كم صديق محضته المود صرفا
كان أقسى على من أيامى
وصديق سقيته من حنانى
فسقانى كؤوس عيش زؤام
وصديق حميته من ضياع
فبنى صرح مجده بحطامى
وصديق جعلت نفسى فداه
زائدا عن حياضه بسهامى
ثم مال الزمان يوما بحظى
فإذاه فى الروع أول رام

ثم ينتهى بخلاصة تجربته المرة فيقول:

والأحاديث عن وجود صديق
كالأحاديث عن وجود السلام!

والواقع أن قارئ المشرنوبى يمكنه أن يتعرف بسهولة على شخصيته من شعره . وهو نفسه يقول :

أنا فى شعرى وشعرى قصتى
لست فى جسمى ولما فى رسمه
بين كفيك وجودى خافقا
وفؤادى غارقا فى دمه

ويصرح بأنه قد وهب نفسه للفن الشعرى ، مؤكدا أنه قد ارتبط معه بميثاق أبدى ، يعلو على محن الدهر ، ونكران العصر :

ولى مع الفن ميثاق بدأت به
عمرى وأعطته روى أعظم القسم
أخلصت للفن حتى خائنى زمنى
فكيف أنساه والميثاق ملء فمى

والأهم من ذلك أن المقارئ - رغم اختلافه أحيانا مع أفكار المشرنوبى - لا يلبث أن يتعاطف معه فى ثوراته العقلية التى قد تجمع أحيانا ، وذلك لسبب بسيط .. أن هذا الشاعر لا يخفى جوانب ضعفه الإنسانى ، بل إنه يعترف به ، ويكشف عنه ، ثم إنه مع ذلك يعود فيرق ويطفو ، بل إنه يبكى ويستجدى من أجل غفران ذنوبه ..

ولنقرأ معا قصيدته " اعتذار " التى يقول فيها :

سامحيني إذا شدوت ، وألقيت
إلى المريح ثورتى وظنونى
فالمهزار الغريب قد يتغنى
وبجنبه عاصفات المشجون
أملى واحة وعمرى صحراء
وكأس فياضه باللحون
والدموع التى غسلت جراحي
بنداهها باتت بغير معين
والطريق الذى احتوانى بالأمس
بعيد عن ناظرى وهو دونى

والرفاق الذين ذادمتهم كأسى
طواهم عنى ضباب المسنين
صرت وحدى وآه من صرت وحدى
ثم أواه من صدادها الحزين
والغد العبقري إن كان من حظى
فأنواره لغير عيوني
فإذا ما أطلقت نفسى ، وغنيت
فاصغى إلى .. أو سامحيني

والشرنوبى من هؤلاء الشعراء الذين وهبوا أنفسهم تماما لفن الشعر ، مكرسين له كل حياتهم . وأنا شخصيا أميل إلى أن صنوف المعاناة التى مرت به كانت بالنسبة إليه زادا يستمد منه لكتابة الشعر . وما أصدق قوله فى هذا الصدد مخاطبا القارئ :

أنا فى شعرى وشعرى قصتى
لست فى جسمى ولما فى رسمه
بين كفيك وجودى خافقا
وفؤادى غارقا فى دمه

إنه نوع من الفناء الشعرى يكاد يشبه الفناء الصوفى وهذا ما ينبغى أن نقرأ صالح الشرنوبى على أساسه . فقد كان يجمع أحيانا فى فضاء الفكر إلى حد انكسار أجنحته :

حياتى طريق لست أدرى انتهائه
وقبل جهلت المبدء منذ ابتدائيا
وموتى بيد يعزف الغيب فوقها
مزامير أشباح تهز الدياتجا

لكنه حين يعى ذاته يدرك رسالته ، ويعلم جيدا مدى المتضحيات الواجبة عليه :

أنا أمشى فى الناس بائع خبز
زاهد فيه قانعا بالمفتات

وكذلك بالملتزامات التى قد تكلفه الكثير :

لعن الله كل من يشهد الحق جليا ، ولما يرى أن يصونه

وإذا كان الجهر بالحق جزءا لا يتجزأ من رسالة الشاعر ، فقد كان عشق الجمال ، مرتبطا لديه بدوافع دينية وصوفية :
هل على الأرض ناسك عبد الله ، ولم يشغل الجمال فؤاده

ويقول :

أنا فى هيكلى عليل طوى المسهد
شبابى ، وحب ليللى زاده
أشعل الله فى السماء هواها
ورماه فكان قلبى حصاده

لكن "ليللى" هذه ليست إلا صورة الجمال المنبث فى كل الوجوه الجميلة ، ويصارحنا الشاعر بأنه لا يعيش امرأه بعينها ، وإنما يعيش
الجمال فى كل امرأه :

لم أنل من غرامها ما تمنيت
وما زلت بالتمنى شقيا
وأنا الشاعر المعريد بالعين
وإن كنت بالفؤاد تقيا
أنا قيس ، ليلاه فى كل ليلى
وهواه المشاع لم يك غيا

هل هو الحب الأفلأطونى ، الذى يبدأ من الجمال الحسى المتجزئ حتى يصل إلى الجمال الروحى المطلق ؟ إنه بالفعل كذلك ، لأن

الشاعر لنا يلبث أن يهتدى إلى نبع الإبداع فى الكون كله :

تعاليت لم تبذل من الخلق كونه
بلا حكمة تهذى فؤاد رشيد
فما ذرة فى الكون إلّا وعندها
مكان ركوع أو مكان سجود

لقد كان الشرنوبى واعيا بقيمة عمله الشعري ، ومدركا تمام الإدراك أن الله تعالى قد منحه موهبة خاصة ، وقدرة متميزة على كتابة
الشعر المطبوع الجيد .. وحين يقابل مثل هذا الشاعر بجحود عصره ، وتجاهل النقاد ، يحس بالمرارة ، وينطوى - فى النهاية - على
نفسه .. لكنه بين الفينة والفينة يطلق أنينا مكتوما ، يدل على أنه أبعد نظرا ، وأحد بصرا من عيون جيله الأعمى . يقول الشرنوبى :

والغد العبقري إن كان من حظى
فأنواره لغير عيونى

وبالفضل ، كانت تلك نبوءة . فقد أهمله عصره ، لكن العصور اللاحقة سوف تعود لإحياء ذكراه ، كلما أتاحت لها الظروف فرصة
لتكريم شعرائها العباقرة .